شعر الاستصراخ والاستغاثة

عادت بلنسية من جديد إلى يد **المرابطين** ، ولاية أندلسية مسلمة ؛ وبذهاب هؤلاء ومجيء **الموحدين** أصبح الأندلس الإسلامي جزءاً من إمبراطوريتهم الشاسعة ، تمتد من طرابلس في الشرق إلى مشارف المحيط الأطلسي ، ومن لشبونة إلى السنغال ، وكان ذلك يلقي على كواهلهم أعباء ثقالا في الدفاع عن هذه الإمبراطورية المترامية ، وكانت الأندلس من بين مقاطعاتهم أضعف الجبهات وأحفلها بالخطر ، تماسكت بعد تضحيات كثيرة أيام خلفاء الموحدين الثلاثة الأول ، ثم تداعت أيام الرابع منهم ، **محمد الناصر بن أبي يعقوب يوسف المنصور** ، الذي تولى الخلافة من ١١٩٩ إلى ١٢١٥ م وظهر هذا التداعي في صورة انهيار سريع بعد معركة العقاب (١) وكانت قاصمة الظهر لدولة الموحدين في الأندلس والمغرب معاً ، فقد خسر المسلمون المعركة ، وحصد الموت أبرياء المقاتلين والمتطوعة ، وبلغ الشهداء عدداً لم تعرفه أية معركة أخرى في تاريخ الإسلام ، حتى أن السائر في ريف المغرب — كما يقول ابن أبي زرع — كان يقطع المسافات الطويلة دون أن يرى رجلاً ، لأن زهرة الرجال راحت صرعى ذلك اليوم الأسيف .

ويبدو أن الذهول تغشى عقول المسلمين بعدها ، وقد استحسن **المقرى** ، في كتابه **نفح الطيب** ، أبيات أبي إسحاق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي ، لأنها تصور هذه الحالة أفضل تصوير :

---

(١) معركة العقاب وتسمى في الاسبانية معركة Las Navas de Tolosa كانت بين الموحدين وجيوش الكاثوليك مجتمعين من ملوك قشتالة وليون ونبرة وارجون ، تساعدهم قوات أجنبية ، وكان البابا وراء ترتيب الخطة وجمع كلمة هؤلاء الملوك ومدهم بالمساعدة ، كما بارك الجيوش الذاهبة الى ساحة القتال ، وقد جرت المعركة في ١٦ يولية ١٢١٢ م .

وقائلة أراكَ تطيل فكرًا كأنكَ قد وقفتَ لدى الحسابِ
فقلتُ لها أفكر فى عقابٍ غدا سبباً لمعركة العقـــابِ
فما فى أرض أندلسٍ مُقامٌ وقد دخل البلا من كل بابِ

بعد معركة العقاب تقاسم ملوك الكاثوليك جبهات الأندلس ، وكان شرقيه من نصيب خاتمة الأول Jaime I (جاقمة فى المصادر العربية) الملقب بالكونكستادور El Conquistador أى الفاتح ، فقد احتل جزر ميورقه ومنورقة وإبيسة. ثم اتجه بعدها إلى بلنسية . ورابط قريباً منها فى عام٦٣٤هـ = ١٢٣٧ م ، وأحس **أبو جميل زيان** أميرها أنه لن يستطيع الثبات وحده ، فقرر إرسال سفارة إلى **أبى زكريا الحفصى** صاحب أفريقية ، أى تونس الحالية ، يطلب منه العون والنجدة ، وندب لها ابن الأبار (أبا عبد الله بن أبى بكر القضاعى) (١) . الشاعر والأديب والمؤلف ، صاحب كتاب « **الحلة السيراء** » و« **تكملة الصلة** » و« **تحفة القادم** » وغيرها .

آثر ابن الأبار أن يكون حديثه عن بلده وطلب الغوث من صاحب أفريقية شعراً ، وأفرغ فى قصيدته كل ما تملك من شاعرية وفن ليثير نخوة الأمير ، وليبرهن فى نفس الوقت على أن مافى الأندلس من شعراء ليسوا دون الآخرين قامة ، وحتم موضوع القصيدة ألا تكون كالمراثى السابقة فأولئك يبكون فحسب ، أما هو فيبكى ويستنجد ، ومن ثم بدأها بدعوة حارة إلى الأمير الحفصى أن يدرك الأندلس بجيوشه ، وأن يعينه على النصر فى معركته ، وأن ينقذ دولة الإسلام فيه مما تعانيه :

أدركْ بخيلكَ خَيْلَ الله أندلساً إن السبيلَ إلى مَنْجاتها دَرَسَا

---

(١) انظر ترجمته فى :
- المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٥٨٩ — ٥٩٣ ، طبعة احسان عباس .
- ابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ، جـ ٢ ص ٤٥٠ ، القاهرة ١٩٥٣

وهَبْ لها من عزيزِ النصرِ ماالتمست فلم يزلْ منكَ عز النصرِ مُلْتَمسا
ياللجزيرةِ أضحى أهلُها جزَراً للحادثاتِ وأمسى جَدُّها تَعسا

وبعد هذه المقدمة القصيرة بدأ يقدم صورة لما يجرى فى أرض الجزيرة بعامة: طوقت المصائب أهلها، وأحالت جدهم تعاسة، وتقاسم الروم عقائلها. وعرض لما يجرى فى بلنسية وقرطبة بخاصة، مما يميت كل غيور كمدا. لقد حل بها الشرك، ورحل عنها الإيمان، وحولتْ مساجدها إلى كنائس. وخافتْ فيها دقاتُ الأجراس نداء المؤذِّن، ولم تعد موضعاً للعلم والمدارسة وبكى حدائقها المورقة، ومرابعها النضرة، وأيامها الخوالى:

تقاسم الرومُ، لانالتْ مقاسمهم إلا عقائلها المحجوبةَ الأنسا
وفى بلنسيةٍ منها وقرطبةٍ ماينسفُ النفسَ أو ماينزفُ النفسا
مدائنٌ حلَّها الإشراكُ مبتسماً جذلانَ، وارتحل الإيمانُ مبتئسا
ياللمساجد عادتْ للعدا بيعاً وللنداء غدا أثناءها جَرَسا
لهفى عليها إلى استرجاع فائتها مدارساً للمثانى أصبحت دُرُسا
كانت حدائقَ للأحداقِ مُونقةً فصوَّح النضر من أدواحها وعسا
فأين عيشٌ جنيناهُ بها خضراً وأين عصرٌ جَلبْنَاهُ بهاسلسا

ثم عدد ما فعل الطاغية بأرضها، ليجعله تمهيداً لدعوة الأمير الحفصى إلى الإسراع فى عونها، وأن يحيى بها من معالم الإسلام ماطمس الأعداء، كما أحيا دعوة المهدى فى أفريقية، ونصر الحق فيها، وقام بأمر الله غير متردد، وانتصر على دعاة التجسيم، ويصف رحلته إليه عبر البحر عجلا، رغم الأنواء والأمواج، ويعدد مآثر الأمير، ويمدحه بما كان يوصف به قرناؤه فى ذلك الزمان من عزيمة وعدل وإحسان وشجاعة، فى أبيات طويلة تجاوز ثلث القصيدة:

محا محاسنها طاغٍ أتيح لها ما نامَ عن هضمها حيناً ولا نعسا
خلا له الجو فامتدت يداه إلى إدراك مالم تطأ رجلاهُ مختلسا

وأكثرَ الزعم بالتثليث منفرداً ولو رأى راية التوحيد مانبسا
صِل حبلها أيها المولى الرحيم فما أبقى المراسُ لها حبلاً ولا مرسا
وأحيِ ماطمستْ منها العداةُ كما أحييت من دعوة المهدى ماطمسا

. . . .

هذى رسائلها تدعوك من كثب وأنت أفضلُ مرجو لمن يئسا
وافتك جارية بالنجح راجيةً منك الأمير الرضى والسيد الندُسا
خاضت خضارة يعليها ويخفضها عبابه فتعانى اللين والشرسا
وربما سبحت والريحُ عاتيةٌ كما طلبت بأقصى شدة الفرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص مقبِّلة من تربه القدسا
ملكٌ تقلدت الأملاكُ طاعته ديناً ودنيا فغشاها الرضا لبسا

ويختمها منادياً الأمير بأن يقدم ، ففى إقدامه حياة الأندلس ، وإن يرسل لها الجيوش ويطهرها من الشرك ، ويقتص من ملوكها « الصفر » ، ويومئ إليه أن تكون الجبهة الشرقية فى الأندلس مقصد عونه — وكانت هناك جبهات أخرى كثيرة تحتاج إلى هذا العون — ومن يدرى فلعل نهاية الأعداء تكون على يديه :

يا أيها الملكُ المنصورُ أنتَ لها علياءُ توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباءُ أنك منْ يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهرْ بلادك منهم إنهم نجسٌ ولا طهارةَ مالم تغسل النجسا
وأوطىء الفيلقَ الجرار أرضهمُ حتى يطأطىء رأساً كلُّ من رأسا
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقتْ عيونهم أدمعاً تهمى زكا وخسا
هم شيعةُ الأمرِ وهى الدار قد نهكت داءٌ متى لم تباشر حسمهُ انتكسا
فاملأ هنيئاً لك التأييد ساحتها جرْداً سلاهبَ أو خطيةً دعسا
واضربْ لها موعداً بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادى قد أتى وعسى (١)

---

(١) يوجد النص الكامل للقصيدة في : المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٤ ص ٤٥٧ وما بعدها .

كان ابن الأبار فى قصيدته صادق العاطفة ، يتحدث عن وطنه الكليم ، ويستحث بالكلمة المنغومة أميراً بعيداً لينقذه ، فجاءت أفكاره مرتبة ونظمه محكماً ، وإن شابه شيء من صنعة تتمثل فيما تناثر بين أبياته من ألوان البديع ، وخالف من قبله فى أشياء اقتضتها طبيعة الموقف ، فلم يعرض لما درس من ممالك وديار وأمم على طريقة ابن عبدون ، ولم يجعل الغزو عقاباً لأهلها على معاصى اقترفوها كما صنع رائى طليطلة من قبل ، والوقشى فى رثاء بلنسية على أيام السيد ، ولم ينح على أهله باللائمة ، يتهمهم بالقعود ويصمهم بالجبن ، لأن ذلك لايخدم هدفه من إثارة الأمير ودفعه إلى نصرة الأندلسيين ، ولأن بلنسية لم تكن سقطت بعد فى يد الكاثوليك .

وزاد على سابقيه ففصل ما أجملوا ، ولم يقنع بالحديث عن المساجد التى أصبحت كنائس ، وإنما تحدث عن الأجراس التى خلفت دقاتها فى المساجد أصوات المؤذنين ، ونعى — وهو الأديب الشاعر — حلق العلم التى توقفت فيها ، وكانت عامرة بالشيوخ والطلاب ، وتشير قصيدته إلى معنى جديد هو تأكيد وشائج القربى والتضامن بين الأندلس والمغرب ، وحق المستضيم منهما أن يطلب العون من الآخر كلما ضيم أو حاق به الخطر .

ومن القصيدة كلها يبدو الجزء الخاص بمدح الأمير الحفصى — ويشغل من أبياتها الثلث تقريباً — حافلاً بالصناعة ، واضح التكلف ، لا ينبض بأية أحاسيس حقة أو مشاعر صادقة ، وماكان يتأتى لابن الأبار أن يسلك غير هذا النهج ، فهو غريب عن تونس ، قليل العلم بأحوال أميرها ، لا يعرف من أمره شيئاً ، ولا يربطه به من الود والأحداث ما يثير ويلهم ، ولم يكن وراء رحلته مطامع شخصية تعود عليه بالنفع وتسوق إليه شياطين الشعر ، وإنما كان رسول وطنه أجاد فى تصوير حاله ومأساته ، فلما تجاوزها إلى الأمير قال عنه ما يمكن أن يقوله أى شاعر عن أى أمير ، فهو طاق المحيا ، ماضى

العزيمة ، كأنه البدر ، عادل ، محسن ، مبارك هديه ، نوّر الله بالتقوى بصيرته ، وطهر سيفه ، وصاغ من ساطع النور جوهره . ولعل ابن الأبار عبر البحر طالباً النجدة وهو كاره فى دخيلة نفسه ، لأن هذه الفترة من حياة الأندلس كانت قمة ازدهاره الثقافى والعلمى ، فامتلأ الأندلسيون بها زهواً وأنفة وتكبراً ، وأحسوا أنهم أعلم من غيرهم وأقدر ، وأولى بالتكريم ، وأجدر بالعون من غير طلب له ولا إلحاح فيه .

هزت قصيدة ابن الأبار من الأمير عطفه ، وحركت جنانه ، ولشغفه بها وموقعها من نفسه أسر شعراءه بمجاوبتها ، وحقق ابن الأبار هدفه من إنشادها ، فقد تحمس الأمير الحفصى لمعاونة شركائه فى الدين ، فأرسل إلى بلنسية أسطولا مشحوناً بالمال والعتاد والأقوات . ووصل الأسطول أثناء حصار المدينة ، فحاول النزول فى « جراو » ، موضع قريب من بلنسية ، فى الرابع من محرم عام ٦٣٦ هـ = ١٨ من أغسطس ١٢٣٨ ، ولكنه وجد الموضع حافلا بجند الكاثوليك فأرسل قائد الحملة **أبو يحيى بن أبى حفص عمر الهنتاتى** المعروف بالشهيد إلى أبى زكريا الحفصى يعلمه بالحال ، واتجه هو بالسفن إلى دانية وأرسى فيها فى الثانى عشر من محرم ٦٣٦ = ٢٦ من أغسطس ١٢٣٨ ، وترك لأهلها الطعام والسلاح اللذين كانا يحملهما ، وعاد بالمال لأنه لم يجد مسئولا يتسلمه .

استمر حصار بلنسية قائماً ، وكل يوم يزداد ضراوة حتى « نفذت الأقوات واستولى الجوع وضعفت القوى وأكلت الجلود والزقوق » ، وتغشى المسلمين يأس قاتل ، فرأى **أبوجميل زيان** أمير بلنسية أن يفاوض **خايمة الأول** على تسليم المدينة ، وكان رسوله وكاتب العقد هو **ابن الأبار** ؛ ونص فى الاتفاق على أن يتسلم الملك الكاثوليكى — أو الطاغية كما ينعته ابن الأبار — المدينة سلماً لعشرين يوماً ، ينتقل أهلها أثناءها بأموالهم وأسبابهم ، « وابتدىء بضعفة الناس وسُيروا فى البحر إلى نواحى دانية ، واتصل انتقال سائرهم براً

وبحراً ، ودخلها الروم صبيحة الجمعة السابع والعشرين من صفر ٦٣٦ هـ = سبتمبر ١٢٣٨م .

وذهبت ، وربما إلى الأبد، درة مدن الأندلس، وكبراها على شاطىء البحر البحر الأبيض المتوسط ! .

لكن أمل المسلمين فى النصرة لم يذهب بضياع بلنسية ، فبقى من الشعراء من يستنهض عزائم المسلمين فى الأندلس وفى الشمال الأفريقى لاستردادها ، وحفظ لنا المقرى واحدة من قصائد هؤلاء الشعراء (١) ، طويلة النفس مجهولة القائل ، توجه بها صاحبها إلى أبى زكريا عبد الواحد بن أبى حفص أمير تونس الذى أنشده ابن الأبار قصيدته السابقة ، وهى فى تسعين بيت ، وحين درست النص للمرة الأولى انتهيت إلى أن قائلها واحد ، وأن مناسبتها كانت بلنسية ، فالشاعر لا يشير إلى غيرها من نكبات المسلمين العديدة ، التى صحبت أو سبقت سقوط عاصمة شرقى الأندلس وكبرى مدنه ، ثم رجحت على استحياء أن تكون لابن الأبار نفسه ، لتوافق النغم ، وتقارب الإيقاع . فالمناسبة واحدة ، وتوجهتا بالنداء إلى رجل واحد ، ومطلع هذه قريب من مطلع تلك ، ونداءات الاستغاثة ، وصيحات الاستنفار قسمة بين القصيدتين ، غير أنى ، فى غيبة الشواهد الحاسمة ، لم أقطع بهذه النسبة . وفى إحدى زيارتى للمغرب ، وتردّدى على خزانة القصر الملكى الحافلة بكل جليل ونادر من التراث الأندلسى ، اطلعت على مخطوطة ديوان ابن الأبار ، وهى فريدة ووحيدة ، وكانت مجهولة تماماً حتى زمن قريب ، وحين تصفحتها عثرت فيها على القصيدة نفسها كاملة ، وإذن فهى له فعلا ، ومثله ، ولمثلها ، لا يسقط اسمه من الذاكرة فى سهولة ، ولعل وراء إهمال المقرى نسبتها إلى صاحبها سببا آخر غير النسيان .

توجه ابن الأبار فى مطلع قصيدته هذه ، وأراها تالية لتلك تاريخاً ، إلى

الأمير الحفصى بأن الأندلس تناديه وتأمل أن يستجيب لها ، ويحطم ما بها من طواغيت الصليب ، إنها تستصرخه النجدة وتنتظر من فرسانه مدداً تدفع به أرزاءها ، وأن بلنسية على نأيها عنه داره ، يرجو المتخلفون بها نصرته ، كما وجد النازحون من أهلها عندى المأوى :

نادتكَ أندلسٌ فلبِّ نـداءهـا ... واجعل طواغيتَ الصليب فداءها
واشدُدْ بجليكَ جُرْدَ خيلكَ أزْرها ... تـردد على أعقابهـا أرزاءها
هى دارُك القصوى أوتْ لإيـالة ... ضمنتْ لها مع نصرِها إبواءها
ويهـا عبيدُك لابقاءَ لهم سوى ... سبل الضراعـةِ يسلكون سواءها
دُفعوا لأبكارِ الخطـوب وعونهـا ... فهمُ الغـداةَ يصابرون عناءها

ثم يتجه إلى الأمير ، ويمهد لذلك ببيت واحد يقول فيه ، إن مصير الإسلام فى الأندلس إلى زوال إذا لم تسعد بفتح جديد بعيد لها مافقدت ، وأن آمالها تعلقت بيحيى يبقى للإسلام بها حياته ، وعليه أن يستجيب لندائها :

تلك الجزيـرةُ لابقاء لهـا إذا ... لم يضمن الفتحُ القريبُ بقاءهـا
طافتْ بطائفـةِ الهدى آمالها ... ترجو بيحيى المرتضى إحيـاءها

ومن الأمير إلى حديث طويل عن بلنسية وما يثيره تذكرها من أحزان وأشجان ، وقد حال الكاثوليك بين أهل المدينة ومعاهدهم التى شبوا فيها ، ومساجدهم ذات المدارس العامرة بالعلم ، وقد أصبحت كنائس تدق أجراساً ، ومصانعها المعطلة تبدو مع الصباح متوقفة خاوية كما لو كان الليل يلفها :

إيهٍ بلنسية ! وفى ذكراك مـا ... يُمـرى الشئون دماءها لاماءهـا
كيف السبيلُ إلى احتلال معـاهد ... شب الأعاجمُ دونها هيجاءهـا
بأبى مدارسُ كالطلـولِ دوارسٌ ... نسخت نواقيسُ الصليبِ نداءها
ومصانعٌ كسفَ الضلالُ صباحها ... فيخالـه الرائى إليه مساءهـا

ويصف حال الكاثوليك فى بلنسية ، ويقول للأمير إنه سبق أن سمع أنباء

بلنسية ، ولكنه يعيدها عليه لعل فى ذلك إنقاذا لبنيها ، ثم يدعوه إلى أن يجرد سيفه لفتحها وإخراج الأعداء منها :

عجباً لأهلِ النار حلوا جنةً ... منها تمد عليهمُ أفياءها
مولاى هاكَ معادة أنباءها ... لتنيل منكَ سعادة أبناءها
جرّدْ ظباكَ لمحو آثار العدا ... تقتلْ ضراغمها وتسبِ ظباءها

ثم يتوجه إلى المسلمين جميعاً فيما وراء البحر يدعوهم أن يهبوا لنصرة الأندلس ، فإن العدو يطوقها من أطرافها يبغى الاستيلاء عليها كلها ، وأن استرداد بلنسية وبالتالى شرقى الأندلس الشمالى ، يجعل من البحر الأبيض بحيرة عربية :

هبوا لها يا معشرَ التوحيدِ قد ... حان الحبوبُ وأحرزُوا علياءها
أوْلوا الجزيرةَ نُصرةً إن العدا ... تبغى على أقطارها استيلاءها
نُقصتْ بأهلِ الشرك من أطرافها ... فاستحفظوا بالمؤمنين نماءها
خوضوا إليها بحرها يصبح لكم ... رَهْواً وجوبوا نحوَها بيداءها

وينتقل إلى مدح الأمير ، فانتظارُه ترقب للفرصة السانحة ، ويبشر الأندلس الصابر المنتظر بمجيئه ، وأن شفاءه سيكون على يديه ، ويعدد مآثره على نحو ماعهدنا فى قصيدته الأولى : فنوره يضىء الدنيا ، وقوته تخضع لها الملوك الجبابرة ، ويده قابضة على البسيطة ، وأن الأرض والزمان ضاقا عن جلاله ، وهو أعلى من النجوم ، راسخ كالطود ، كريم كالغيث ، نبيل المحتد :

وبحسبها أنَ الأميرَ المرتضى ... مترقبٌ بفتوحها آناءها
بُشْرى لأندلسٍ تحب لقاءه ... ويحب فى ذات الإله لقاءها
ملكَ أمدَ النيرين بنوره ... وأفاده لألاؤه لألاءها
وسع الزمانَ فضاقَ عنهُ جلالةً ... والأرْضُ طُرا ضنكها وفضاءها
كالطوْد فى عصفِ الرياح وقصفها ... لا رَهْوَها يخشى ولا هوجاءها

ويختم القصيدة معتذراً للملك بأن أنعمه لاتحصى ، وفضائله لاتعد ، وأن القوافى تقف دون تصويرها عاجزة ، ويأمل منه أن يصغى إليها ، وأن يغضى عن هفواتها :

صفحاً جميلا أيها الملكُ الرضى عن محكمات لم نطق إحصاءها
تقف القوافى دونهن حسيرةً لا عيَّها تُخفى ولا إعياءَها
فلعل عليا كمْ تسامحُ راجياً إصغاءَها ومؤمِّلاً إغضاءهـــا

والقصيدة طويلة ، فى تسعين بيت ، كثيرة الصناعة من جناس وطباق ، يمل الإنسان قراءتها ، واعتمد ابن الأبار فى أغلب معانيها على قصيدته الأولى ، واستخدم الكثير من إلفاظها ، مثل: مولى ، ورحيم ، ، وعقائل ، والمدارس ، وحشاشة ، وغيرها ، وزاد معانى قليلة اقتضتها طبيعة الأحداث نفسها ، فهو يستحث الأمير الحفصى النصرة ، ويشكر له إيواء النازحين من بلنسية بعد أن استولى عليها خايمة الأول ، ذلك أن أسراً أندلسية عريقة ، بعيدة الأثر فى تاريخ الأندلس السياسى والثقافى قد نزلت أرض تونس بعد ضياع مسقط رأسهم ، فوجدت كثرتهم من أهله برا وعطفاً ومواساة ، واضطربت الأمور بآخرين فكان حظهم تعساً ، وإقامتهم ضيقاً ، وأشار إلى مصانع بلنسية وقد توقفت فشابه صباحها مساءها ركوداً وصمتا ، وأبرز فكرة أن العدو لن يقنع ببلنسية ، وإنما يطمع فى غزو الجزيرة كلها ، وأن إنقاذها منه يبدأ باسترداد ما استولى عليه .

لم تؤد استغاثة ابن الأبار الثانية إلى شىء ، ولا نسمع له بعدها شيئاً عن وطنه ، ويبدو أن اليأس أو الخوف ، أو هما معاً ، سيطرا عليه ، فترك الأندلس نهائياً ، ورحل إلى تونس ، ولمع فيها كاتباً وشاعراً ومؤلفاً ، وكانت خاتمة حياته مأساة قاصمة ، فقد حيكت حوله الدسائس ، ووشى به إلى الأمير ، وحكم عليه بالموت قعصا بالرماح ، وسط محرم من سنة ٦٥٨ ، ثم أحرق شلوه ، وأحرقت معه كتبه وأوراق سماعه ودواوينه .

كان سقوط بلنسية من بعد طليطلة بداية انحسار الإسلام أمام جحافل الكاثوليكية الزاحفة من الشمال ، تدعمها المساعدات الأجنبية من كل العالم المسيحى ، ومن ورائها البابا بكل تعصبه ونفوذه وهيبته ، فانهارت الجبهة الشرقية وبدأت قواعدها تسقط واحدة وراء أخرى ، فسقطت مرسية Murcia عام ٦٤٠ هـ — ١٢٤٣ م ، وجيان Jaén وشاطبة Jativa فى ٦٤٤هـ — ١٢٤٦ م ، ولم يكن حظ وسط الأندلس خيراً من شرقيه . فسقطت قرطبة Cordoba عاصمة الخلافة القديمة فى يد فرناندو الثالث Fernando III وبعدها أصبح الطريق مفتوحاً أمامه إلى إشبيلية Sevilla كبرى مدن تلك الجهة ، وعاصمة الدولة على أيام المرابطين والموحدين ، فحاصرها براً وبحراً . فانهارت أمام الجوع واستسلمت ٢٢ من ديسمبر ١٢٤٨ — ٦٤٥ هـ ، وباستيلائه عليها ، إلى جانب قرطبة ، استحق من مواطنيه لقب القديس El Santo ، وهكذا لم يأت منتصف القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، حتى كانت معظم بسائط الأندلس وقواعده الهامة قد سقطت فى قبضة الدول الكاثوليكية ، خلال ظروف دامية من المحن والاختلافات والفوضى والشقاء ، وانكمشت رقعة الإسلام فى الأندلس ، وكانت تضم على أيام المنصور العظيم ثلاثة أرباع الجزيرة ، إلى حيز ضيق يقع فى أواسط جنوبى الأندلس ، فيما بين نهر الوادى الكبير Guadalquivir والبحر فى الأندلس ، واستطاعت فى كنف المحنة وخمر الفوضى أن توطد دعائمها وأن تطاول التلاشى أكثر من مائتى عام .

وخلال حركة الجزر هذه توقف شعر الاستصراخ أو كاد : وحل مكانه نثر مسجوع سخيف ، يفتعله الكتاب فى الرسائل الرسمية ، طافح بالزينة المفتعلة ، والصناعة المنهكة ، لا يحرك مشاعر ولا يثير انفعالا ، ولا يحسن تصوير الأحداث ، وانكفأت مملكة غرناطة على نفسها تواجه مصيرها بمفردها ، فالمغرب ليس أفضل

حالا ، ومصر الساعد فى لحظات الشدة لكل العالم الإسلامى خرجت من الحروب الصليبية منهوكة القوى ، ومالبث اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة إليه أن أتى على ازدهارها الاقتصادى ، وخلا الجو لصغار الأمراء العابثين فى مملكة غرناطة ، يتعاونون مع العدو ، ويتآمر الابن على أبيه ، والأخ على شقيقه ، ويتقاتلون بجيوش أجنبية ، ويدفعون الجزية لأعدائهم عن يد وهم صاغرون ، نعم نلمح بينهم واحدا أو اثنين يبرقان وسط الظلام الغامر ، فيحييان موات القلوب ، ويجددان غائر الأمل ، ولكن إلى حين ، وهيهات ! ...

«إذا لم يستصرخ الشعراء من حولهم من المسلمين يأساً أو احتقاراً أو جهلا ، فقد وجدت المحن نفسها وكانت فادحة وقاصمة ، من يخلدها فى شعر مُبكٍ حزين ، وكان شاعر النكبة بحق هو : أبو البقاء الرندى ، وسنأتى على حياته ، وندرس نونيته فى الفصل التالى .